الباب الأول

الفصل الأول

من هم المغول ؟

يجب علينا أن لا نعتقد أن المغول قوم لم يؤثروا في تاريخ البشر؛ لأنهم كانوا قوة مؤثرة على من حولهم من شعوب ودول، لقد أسقطوا الحكومات والأنظمة، وانطلقوا كالعاصفة يدمرون ويقتلون ويحرقون، ونشأت مدنيات وبادت حضارات، وظل اسم المغول يعني الدمار والهلاك.

والمغول كانوا يتمتعون بالتسامح الديني رغم أنهم غلاظ الأكباد، قساة القلوب، فقد دان بعضهم بالنصرانية، كما اعتنق أشهر خاناتهم على الإطلاق الإسلام، إنه بركة خان الذي صاهر السلطان المملوكي بيبرس، وحارب من أجل نصرة الإسلام وأهله بني جلدته من المغول ومنهم ابن عمه هولاكو.

لكن لنبدأ حكايتنا من البداية.

يبدأ تاريخ المغول في منغوليا، وهي منطقة قفرة تقع جنوب بحيرة (بايكال) بوسط آسيا.

كان المغول يتجولون في تلك المنطقة يسوقون قطعان ماشيتهم وخيلهم بحثاً عن المرعى، وهم من العرق الأصفر.

ويحدثنا التاريخ عن رجل استطاع أن يتولى فيهم الزعامة، ذلك الرجل هو الزعيم (كابول خان)، لقد استطاع ذلك الرجل أن يسيطر تماماً على شمال صحراء غوبي بما فيها من مراعٍ تمتد من بحيرة بايكال العظمى حتى حدود منشوريا.

وبعد أن استقر الأمر لذلك الخان وتمت له السيطرة على القبائل الموجودة في المنطقة ترك لكل قبيلة الحرية في أرضها على أن تقدم له خراجًا سنويًا من الخيل والماشية مقابل حمايته لها.

ثم ورث يسوغاي الزعامة من أبيه كابول.

obeikandl.com

جنيكزخان:

قيل: إن تيموجين انفلت من بطن أمه وأصابعه مطبقة على كتلة من الدم المتجمد، وتروي القصص عن منظر ذلك الزعيم الرهيب الذي كان متين البنيان، مكتنز اللحم، مفتول العضلات.

وذات يوم كان يتجول هو وأبوه في مضارب قبيلة تدعى (أولهونود)، وإذا بامرأة تدعوهما للدخول وتعرض أن تزوج ابنتها بورتاي من تيموجين، كانت بورتاي ابنة زعيم القبيلة (مونليك).. وسرعان ما ترك يسوغاي ولده عند الأصهار وقفل راجعاً وحده إلى قبيلة يكا، وسرعان ما وصلت الأنباء إلى ابنه تيموجين في خيام (أولهونود) بمصرع الأب مسموماً بيد أعدائه التتار.

وألفى تيموجين نفسه وحيداً، على عاتقه حمل ثقيل، ثقيل.

حين عاد تيموجين إلى قباب يكا، ألفى كل شيء مختلفاً؛ فقد انفرط عقد القبيلة، وانحلت أسرته، وتخلى عنه الأتباع، بل إن القوم اتخذوا لهم زعيماً آخر ورفضوا أن ينصبوا تيموجين عليهم زعيماً مكان أبيه.

كان على الأسرة أن تبذل الجهد للحصول على الزاد، فانطلق الصبيان إلى الأنهار يصيدون الأسماك، لكن بعد مدة أغارت عليهم قبائل

(التايدجوت) واستولت على ما لديهم من جياد وماشية، فهل يستسلم الزعيم الصغير للأمر..؟ لا. لقد مضى في أعقاب المغيرين واسترد ما أخذوا بعد أن أوقع بأعدائه الهزيمة؛ إذ أردى بعضهم قتلى بما رشقهم به من سهام.

حين سمعت القبائل ببسالة تيموجين عادوا إليه وقد وجدوا فيه الزعيم المنشود، فنشط تيموجين إلى جمعهم من جديد تحت قيادته.

لكن كان عليه قبل ذلك أن يعقد الأحلاف مع زعماء القبائل الأخرى ليحارب بهم عدوهم المشترك التتار.

كان (طغرل) زعيم قبيلة الكرايت من أقوى ملوك المنطقة، وكان والد تيموجين الراحل يسوغاي على علاقة طيبة بطغرل، وما لبث تيموجين أن رحل إليه حيث يقيم قرب نهر تولا، وحلف له يمين الطاعة على أن يكون من أتباعه.

وها هي القبائل تنضوي تحت لواء تيموجين من جديد، ثم يجتمع أمراؤها على انتخاب تيموجين خاناً (كبيراً) على المغول.

ولقد نظم جنكيزخان دولته القبلية من خلال قانون اجتماعي، جاء فيه: «قتل الزاني ومن تعمّد الكذب أو السحر أو تجسس أو بال في الماء أو وجد عبداً آبقاً فلم يرده على صاحبه، وحرّم ذبح الحيوان كما حرّم تضخيم الألقاب، وأقام نظاماً للبريد يأتيه بأخبار البلاد».

لم ينتخب الأمراء تيموجين لأنه كان ابناً للزعيم يسوغاي؛ بل لبسالته وشجاعته وحكمته وحسن بصره بالأمور، وأطلقوا عليه اسم جنكيزخان، أي الفاتح الأعظم أو القوي..

وقالوا في اختياره في نص طريف نقله إلينا المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه (جامع التوارايخ) ج١ :

لقد قررنا بأن ننادي بك خاناً، وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء. فما نسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع تحت أيدينا من الجياد الأصيلة سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد سوف نجعله لك. فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا، وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين.

سارع جنكيزخان يوزع الوظائف والمهام بين أنصاره، فها هو فريق مكلّف بحراسته، وفريق آخر يوفّر المؤن ويعد العربات ويشرف على الخدم، وفريق ثالث يحافظ على النظام عند انعقاد (القورلتاي) أو مجلس القبيلة.

لقد ولد تيموجين سنة ١١٥٩م، وها هو وقد شارف على الثلاثين سنة ١١٨٨م يهاجم بجموعه التي بلغت خمسة عشر ألف مقاتل التتار وينزل

بهم هزيمة ساحقة، ثم ينضم بقواته إلى قوات طغرل فيقهران قبائل المغول المتمردة، ويخضعانها لسلطانهما.

لكن حدث أن انعقد حلف ضخم من أعداء جنكيزخان من المغول والتتار، وانطلقت جموع الأعداء لتهاجم جنيزخان وطغرل، بيد أن قواتهما أفلحت في هزيمة قوات الأعداء سنة ١٢٠٢م.

وكانت المفاجأة أن تخلى طغرل عن جنكيزخان وانضم إلى من بقي من أعدائهما، وأعلن الحرب على حليفه.

أسقط في يد تيموجين إذ لم يتوقع ذلك الغدر من حليفة، بيد أنه لجأ إلى الحيلة، وباغت الأعداء بهجوم ساحق وأوقع بهم شر هزيمة سنة ١٢٠٣م، ومن بعدها صار جنكيزخان المسيطر على قبائل المغول بأسرها.. تلك المقيمة في الشطر الشرقي من منغوليا.

لم يعقد جنكيزخان مجلس القبيلة الموحد (القورلتاي) إلا أواخر ١٢٠٦م بعد جمع رجال قبائل منغوليا، وفيه ارتدى زي الملك وسنَّ نظام دولة المغول.

أحاط الخان نفسه بصفوة من الأتباع جعلهم مستشاريه، وجعل له حرساً من عشرة آلاف رجل تألفت منهم كتيبة من ألف فارس أو بهادر أي الشجاع لمصاحبة الخان حين يخرج للقتال.

أما جيش المغول فيقوم على وحدات، الوحدة الواحدة تتألف من ألف جندي، اشتهر أولئك الجند بسرعة الانقضاض على الأعداء وشلّ حركتهم، يساعدهم في ذلك عملاء وجواسيس ينقلون لهم الأخبار.

استطاع جنكيزخان غزو الصين والاستيلاء عليها سنة ١٢١٥م، وبعد ذلك النصر كانت له عبارة مشهورة، لقد كان يردد:

إن في السماء قوة الشمس، أما على الأرض فقوة الخان.

ولم يطب الخان نفساً بالحياة في قصور الصين الفاخرة؛ فقد حن إلى البادية وإلى الحياة في قبابه، فيمم شطر صحراء غوبي حيث الشمس اللافحة وخلّف محله (موهولي) قائداً للبلاد.

لقد عاد إلى بلاده تصحبه زوجته الحبيبة (بورتاي) وأولادهما، عاد بكنوز الصين من الجواهر والآلات والعلماء والصناع.

واتخذ الخان من مدينة (قره قورم) عاصمة لحكمه، فاستبدل بالقباب المصنوعة من اللباد القباب المبطنة بالحرير، وفي بعض تلك القباب جمع جنكيزخان نساءه جميعاً من سبايا قبائل التتار، وأميرات الصين.

شعر الخان بحاجة أولاده إلى المربين، فدفع بهم إلى المحاربين الأشداء يعلمونهم فنون القتال، وكان جوجي، أكبر أبنائه من أقدر المحاربين، فولاه أبوه إمارة الصيد، كما ولىّ ولده جغطاي إمارة القانون والعقاب، أما أصغر الأولاد (تولوي) فولاه أميراً على الجيوش.

obeikandl.com